لوقا ١٥، ١١-٣٢

١ أحد الابن الشاطر

باب التوبـــة

" أقوم الآن وأعود إلى أبي "

أسئلة كثيرة يثيرها هذا النصّ الإنجيليّ في داخلنا. فمثلاً، ما الذي دفع هذا الأب لأن يحترم ابنـــه الأصغر ويقسم له حصتّه ويودّعه حين أراد هذا الأخير أن يرحل؟ أليست هي المحبّة؟ المحبّة تحترم الحريّة حتّى ولو أخطأت هذه الأخيرة.

ما السبب في أنَّ الأب بقيَ ينتظر ويرجو عودة ابنه الضال؟ أليس حنانه وحبُّه؟ ما الذي دعا هذا الأب أن يستقبل ابنه الأصغر بالإكرام وبالقبلة ويخرج إليه لاستقباله بدل أن يحاسبه على القديم؟ إنّهـــا محبّته أيضاً.

كم كان هذا الأب مُحِبّاً، حتّى أنّه راح "يتوسّل" ابنه الأكبر كي يدخل، ما السبب؟ إنّها محبّتـــه الكبيرة للجميع.

يا لعظمتك يا محب البشر! هذا هو الآب السماويّ كما عرَّفه يوحنا: "محبّة". ليس مـــن كلمـــة أخرى تستطيع أن تعرِّف عنه أكثر من ذلك.

كل هذه الأسئلة السابقة لها إجابات سهلة. أمَّا السؤال الأصعب فهو: ما الذي جعـــل الابـــن الأصغر يقوم ويعود إلى أبيه؟

للسؤال جوابان: الأوّل إنّها الخطيئة عينُها. إنَّ حياة الخطيئة واهية، الخطيئة كالخرنوب غاشّـــة، تبدو للوهلة الأولى جذابة وحلوة ولكن أثرها الأخير مُرّ. تصير خبرة الخطيئة مرّات عديدة دافعاً للتوبة. خُلِق الإنسان صالحاً بالفطرة، لذلك يستصعب أن يحيا غريباً في عالم الشرور. لا يرتـــاح الإنســـان في الشرور.

مع ذلك نحن نعرف أنّ كثيرين عاشوا في غربة عن الله مع خرنوب الخطايا، ولم يغيِّروا حياتهم وبقيَ غشّ الظلام يداهمهم. لذلك فالسبب العميق والذي حدا بالابن الأصغر إلى العودة أو التوبة كان التالي: الآب الحنون. إنّه العامل الثاني والأهم. لا بدَّ أنَّ هذا الابن تذكَّر في غربته، حين لم يكن من أحد ليعطيه الخرنوب، تذكر حبّ الآب، وعنايته، وحنانه... هذا الواقع السماويّ العذب دفق في مفاصل هذا الصغير المحلولة والمتعبة حياةً ليقوم ويعود.

هذا هو باب التوبة، سكْبُ المحبّة الإلهيّة وفيض الحبّ الأبويّ. الحنان الإلهيّ جارحٌ لكلّ من يبتعد. سيف الله القاطع هو حبُّه اللامتناهي، كما نصلي في إفشين الساعة السادسة: "بشوقك إجرحْ نفوسنا". إنَّ خبز الحياة الحقيقيّة الذي به يحيا الإنسان، هو الحبّ الإلهيّ.

لو فكَّرنا، بعقلنا البشريّ، في قول المسيح: "تعالوا إليَّ أيّها المتعبون وثقيلو الأحمال وأنا أريحكم"، لأدركنا أن المسيح يعني عبارةً أخرى: "تعالوا إليَّ أيّها المتعبون... لكي أنا أرتاح". إنّ الله متعب طالما نحن لسنا مرتاحين. فحين نكون بعيدين عن كرامة حياتنا الحقيقة، وحين لا نكون بخير، فأنّنا لا نكون وحدنا في ألم وحسب، بل هو أيضاً، لا بل إنَّ ألمه أعظم من ألمِنا.

فالله، حين نبتعد ونخطئ، لا تتآكله الكرامةُ ولا يطلب حساباً أو انتقاماً. بل تتآكله الغيرةُ، لأنّه إلهٌ غيور على جبلته التي تبناها بالحبّ الأبويّ، ويريدها كما أراد لها، أن تحيا.

في الرسالة التي سمعناها اليوم، يقول القدّيس بولس الرسول: "أنتم هيكل الله الحيّ". لقد أوضح ربّنا يسوع المسيح موقفه من هذا الهيكل قائلاً: "غيرة بيتك أكلتني". نحن هياكل الله والله غيور على هذه الهياكل. لذلك حين نخطئ فالله الغيور يطلبنا.

نتذكّر تلك القصّة من الأدب النسكيّ، أنَّ الشيطان ظهر لأحد الرهبان وقال له: "إنَّ إلهكم قد أتعبنا! فإنّنا نحيك الحبائل ونبسط الشباك ونتعب سنين وسنين لنبعِد أحدكم عن إلهكم، وإذا ما سقط مرّة وأسرناه، بكلمة واحدة والتفاتة صغيرة يعيده الله إليه، وكأنَّ شيئاً لم يحصل! إلهكم قد غلبنا".

يا لسرّ محبّة الله ويا لعظمة أبواب التوبة! عندما ندرك أنّنا عدما نخطئ حينها لا نقابَل بالعقوبة لأن الله هو الحبّ الكبير. وإنّما حيث تكثر الخطيئة هناك تكثر النعمة. "افتحْ لي أبواب التوبة يا واهب

الحياة". هذا هو باب التوبة: الغيرة والحبّ الإلهيّان. "افتحْ لي أبواب التوبة التي أنت أبدعتها"، تقول أفاشين المطالبسي.

هذا ما عرفناه عن الآب السماويّ في تاريخ البشريّة. والعهد القديم رغم لغته، وقصصه، وتاريخه،... فإنَّ موضوعه الجوهري الوحيد يبقى في أنَّ الإنسان الشارد مُحترم، لا بل مطلوب من الغيرة الإلهيّة أيضاً، ومحبّة الله تتبعه حتّى النهاية، حتّى ولو اضطرّه الأمر لأن يذبح ابنه الوحيد من أجل ذلك.

وهذا نختبره في كلّ يومياتنا وأحداث حياتنا، وفي كلّ موقف نبتعد فيه عن بيتنا الأبويّ. ما أكثر هذه الحوادث، وما أسهل الغفران! يكفي أن نريد. يقول القدّيس اسحق السرياني: "التوبة هي كره الخطيئة". اكره الخطيئة كي ترضي الله وتصالحه.

هذا ما نختبره في كلّ لحظة في الصلاة. لو سألنا هدوئياً ومصلّياً ما الذي يدفعه ليعود بذهنه إلى قلبه وصلاته بعد أن شرد بعيداً، لأجاب بأنّه على موعد، وأنَّ يسوع هناك ينتظر، وأنَّ غيرة يسوع على هذا القلب قد أكلته.

سرّ اللقاء بالله بعد أن نبتعد عنه هو أنَّ الأب على الباب ينتظر ليخرج ويرتمي على أعناقنا ويعطينا قبلة السّلام.

"أقوم وأعود إلى أبي وأقول له يا أبي..."،

أعود لأنَّك تنتظرني، أعود لأنّ سكب حبِّك قد جرحني.

آميـــــن